فمن ديوانه الاول **نهر الرماد** (١٩٥٧) الذي طرح فيه قضية الحضارة في الشرق والغرب ، فوجد الشرق منجذبا في حلقات الدراويش يعاني من سبات طويل عميق والغرب متحجرا في آليته يعاني قتسعريرة الحياة المولية ، الى ديوانه الثاني **الناي والريح** (١٩٦١) الذي غنى فيه انبعاثا عربيا شاهد انبثاقه في بشائر الوحدة العربية بين مصر وسوريا التي رأى فيها منطلقا لوحدة عربية شاملة هي الدليل القاطع على انبعاث الحضارة العربية بعد موت طويل ، وحتى ديوانه الثالث **بيادر الجوع** (١٩٦٥) الذي عاني فيه مأساة الانفصال التي صفعته وايقظته من وهم ظن بعض الوقت انه اليقين ، فكانت قصيدته « لعازر ١٩٦٢ » التي صورت الانسان العربي متشبثا بالموت، رافضا الانبعاث ، ميتا في الحياة — فقرر ان انبعاثه كان مشوها وغير اصيل .

كانت مأساة سقوط البطل العربي مأساة خانقة لخليل حاوي على الصعيدين انتوأمين : الحضاري والشعري . فعلى الصعيد الحضاري تمثلت ازمة الحضارة العربية التي وصلت الى مأزق لم يسعها ان تخرج منه : فاذا كانت الوحدة هي النتيجة الحتمية للعوامل والعلل التي تؤدي الى الانبعاث فان ما ينطوي عليه الانفصال من نواقص وعاهات ليس سوى نذير بانتصار الموت واستمراره . وعلى الصعيد الشعري عانى الشاعر مأساة رؤيا خادعة بشرته بالانبعاث في **الناي والريح** ، او لعلها كانت وهما تنكر رؤيا . لكن هل يمكن ان يخدع الشاعر ؟ وهل بقي هناك في الكون كله من يقين؟ لعل الرعب الذي عاناه خليل حاوي حين تمثلت له قصيدة « لعازر ١٩٦٢ » بصدقها الموجع كان سببا اساسيا في صمته الطويل الذي تلا القصيدة . وكان استمرار الاوضاع والعاهات التي كشفتها القصيدة عاملا ثانيا في هذا الصمت : فقد عبر عما يعتمل في خضم الحضارة العربية من تيارات وصور وعوامل فلماذا يكرر القول ؟ ثم جاءت هزيمة الامة العربية عام ١٩٦٧ لتؤكد الرؤيا التي تكشفت لحاوي منذ عام ١٩٦٢ . ولم تكن الهزيمة بالنسبة اليه مفاجأة او صدمة كما كانت لكثيرين ، بل كانت نتيجة حتمية لصور الموت والدمار التي اعلنت عن ذاتها في « لعازر » . لذلك لم ينح خليل حاوي كما ناح كثيرون ولم يصرخ ولم يلعن ولم يلق اللوم على هذا او ذاك ، بل تألم في صمت من كان يحلم بنبأ يكذب ما رآه وعاناه فانقض عليه نبأ اكد المأساة بحيث لم يعد هناك مجال للشك .

لم يصدر لخليل حاوي اي ديوان بعد هذه الدواوين الثلاثة . غير ان حاوي لم يرحم ذاته او لم ترحمه ذاته من الانصهار في اتون الابداع الشعري ، فكانت السنوات الثماني الاخيرة منذ عام ١٩٦٧ الى اليوم فترة مخاض مؤلم تولدت عنها اربع قصائد ستنشر قريبا في ديوان . ولعل هذه الفترة كانت صورة لمرحلة جديدة من مراحل نتاج حاوي الشعري .

ظلت قضية الحضارة العربية محورا ترتكز اليه تجربة خليل حاوي الشعرية في هذه الفترة . بل ان القضية اصبحت اكثر جدية وخطرا مما كانت عليه في اي وقت مضى ، لقد كانت هناك مجالات لشك وامل في الماضي ، اما الحاضر فقد اعلن عن ذاته بوضوح لا يسمح بالتباس او تأويل . ان الامة العربية بعد قرن كامل من البحث عن استجابة اصيلة للتحدي الغربي الساعي الى تذويب شخصيتها الحضارية ثقافيا واجتماعيا وسياسيا وجدت نفسها منهزمة امام هذا التحدي في هزيمتها امام الحركة الصهيونية التي اتخذها الاستعمار الغربي مطية لتحقيق اغراضه في العالم العربي . ولم تكن الهزيمة العربية بنت الساعة ولم تكن خطأ استراتيجيا او تكتيكيا ولم تكن مسؤولية هذا البلد العربي او ذاك ولم تكن خطيئة زعيم عربي او آخر. كانت الهزيمة